السيميائية

من المعروف أن السيميائيات علم حديث النشأة، لم يظهر إلا بعد أن أرسى السوسيري فرديناندي سوسير أصول اللسانيات الحديثة، في بحر القرن العشرين، مع الإشارة إلى أنه قد كانت هناك أفكار سيميائية متناثرة في التراثين الغربي والعربي، ولأنه علم استمد أصوله من مجموعة من العلوم المعرفية، فإن مهمة تحديده وإعطاء مفهوم عام له من الأمور الصعبة، لهذا السبب تعددت الآراء في تعريفه.

لقد عرف هذا العلم فوضى مصطلحية كبيرة جدا، وانتشر انتشارا واسعا بعدما تأكد فشل المشروع البنيوي، الذي انغلق علة نفسه غير سامح لها بالتجول في فضاءات النص الخارجية.

1- الجذر اللغوي للمصطلح

تؤكد معظم الدراسات اللغوية أن الأصل اللغوي لمصطلح sémiotique يعود الى الأصل اليوناني sémion الذي يعني علامة و logos يعني علم العلامات.

يفضل الأوروبيون مفردة السيميولوجيا التزاما منهم بالتسمية السوسيرية، أما الامريكيون فيفضلون مصطلح السيموطقيا التي جاء بها بيرس، وهذه القضية أيديولوجية بحتة.

في الاصطلاح

إن السيميائيات علم واسع، وشامل في طياته الكثير من العلوم، ولعل أهم محاولة لتعريف هذا العلم كانت مع دي سوسير:" إن اللغة نسق من العلامات التي تعبر عن الأفكار وانها لتقارن بهذا مع الكتابة ومع ابجدية الصم والبكم، ومع الشعائر الرمزية، ومع صيغ اللباقة، ومع العلامات العسكرية... وإننا لنستطيع أن نتصور علما يدرس حياة العلامات في قلب الحياة الاجتماعية يسمى السيميولوجيا، وأنه سيعلمنا مما تتكون العلامات واي القوانين تحكمها ". استطاع دو سوسير التفطن إلى أن السيميولوجيا محتوية لسانيات من زاوية ان اللغة نظام اشاري يمتاز بالأفضلية والاتساع. أما الأمريكي الكسندر تشارلز بيرس فقط ربط هذا العلم بالمنطق، أما الباحثة العربية سيزا قاسم فتصرح ان هدف السيميولوجيا هو تفاعل الحقول المعرفية المختلفة.

يعرف صلاح فضل السيمائيات بأنها:" هي العلم الذي يدرس الأنظمة الرمزية في كل الإشارات الدالة وكيفية هذه الدلالة، لقد استطاعت النظرية السيميائية أن تتوغل في مختلف مجالات الأدب والفن والثقافة بحكم انها مجالات تتخذ من علامات النص الأدبي والإبداع المسرحي والسينمائي والتشكيلي هيكلا يمكن أن يشمل ثقافة متميزة.

2- اتجاهات السيميائيات

أ- سيميائية التواصل: la sémiotique de communication

فرض هذا التوجه حضورا قويا خاصة مع أصحاب المدرسة الفرنسية أمثال: بويسنس، مونان، كرايس، اوستين، يستند هذا الإتجاه إلى العديد من أفكار سوسير حول اللغة، حيث تتحول الإشارات الى فعل تواصلي مع الآخرين، فوظيفة اللغة الأساسية في التواصل، ولا تختص هذه الوظيفة، فقط بالجانب اللغوي، وإنما توجد أيضا في البنيات السيميائية عند أصحاب هذا الاتجاه، يبحث هذا النوع في طرق التواصل.

ب- سيميائية الدلالة: La semiotique de signification

رائد هذا الاتجاه الناقد رولان بارت الذي رد على الاتجاه الأول بقلب المقولة السوسرية التي ترى أن اللسانيات ماهي الا جزء من علم العلامات، ليؤكد في كتابه درس السيميولوجيا أن السيؤميولوجيا نفسها استمدت مفاهيمها الإجرائية من اللسانيات، فالأنساق الدلالية لا يمكن لها أن تتكون بمعزل عن اللغة.

ج- سيميائية الثقافة la semiotique de la culture

من أهم رواد هذا الاتجاه يوري لوتمان، ايفانوف، ت. تودوروف أمبرتوايكو، تنطلق سيميائية الثقافة من اعتبار الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية وأنساق دلالية، فاللغة هي الأساس والأهم في قلب الأنظمة، وذلك لأهميتها الكبيرة في حفظ وصياغة أفكار وثقافات الشعوب، فالعلامة لا تكتسب دلالتها إلا من خلال وضعها في إطار الثقافة.

التفكيكية Déconstruction

يعد مصطلح التفكيكية من المصطلحات المتداولة في الدراسات النقدية المعاصرة، وهو ما أحدث المناهج النقدية النصانية، فكان رائدها جاك دريدا[1] الذي استفاد من المناهج السابقة، وأضاف اليها مفاهيم خاصة به، وطريقة متفردة لتحليل النصوص بمختلف أنواعها، وتعرف هذه المرحلة بمرحلة ما بعد البنيوية.

يرجع تاريخ النقد الأدبي ميلاد التفكيكية الى أكتوبر 1966، تاريخ تنظيم جامعة جون هوبكنز john hopkins لندوة شارك فيها نجوم النقد العالمي: رولان بارط، ت.تودوروف، لوسيان غولدمان جورج بولي، جاك دريدا، جان لاكان..

يجمع جمهور الباحثين على عد تلك الندوة بمنزلة البيان التفكيكي الأول، يوصف جاك دريدا بأنه مفكر صعب، ويصف نفسه بلغة قلقة، قائلا: " أنا يهودي جزائري، يهودي لا، يهودي بالطبع، ولكن هذا كاف لتفسير العسر الذي أتحسسه داخل الثقافة الفرنسية لست منسجما إذا أجاز التعبير، أنا افريقي شمالي بقدر ما أنا فرنسي..."

هو جاك دريدا، الشخصية القلقة المتشتتة، جزائري المولد، فرنسي الجنسية، يهودي الديانة، أمريكي المقام في زمن ماضي، انه شخصية مفككة يصدره عنها تفكيكي، يطبعه الإبهام والتناقض الظاهري، والإنسجام والتشكيك والثورة النقدية واللغة المراوغة.

سعى جاك دريدا عام 1967 من خلال كتابه علم الكتابة إلى إقامة مبدئي الشك واليقين، ويمكن عرض اهم المبادئ التي تقوم التفكيكية فيما يلي:

- العلامة تحيل على علامات سابقة ولاحقة، مما يلغي نهائيا حضور المعنى في اللحظة، فالمعنى لا يحضر إلا في شكل غياب.
- أكد دريدا أن سبب الفشل المعرفي للنصوص والخطابات تعود إلى الاهتمام بالبلاغة والاستعارات عموما، والنزوع إلى مركزية الكلمة في النص.
- أسس دريدا منظومة مصطلحات من مثل: الكتابة، الاختلاف، الإرجاء، فالكتابة خلق وإنتاج وابتكار، والاختلاف هو الذي يحقق التفرد والتميز للكاتب.
- تعتمد التفكيكية على القراءة العميقة للنصوص، حيث يتم تثبت المعاني المباشرة والصريحة، ثم العمل على البحث في ثغرات وفجوات والشروح الضمنية للنصوص.
- تعتمد التفكيكية الحوار الجدلي بين القارئ والنص.

[1] جاك دريدا فرنسي الأصل ، ولد في الأبيار بالجزائر العاصمة 1930/07/15 ، المتوفي بباريس 2004/10/09 ، له العديد من المؤلفات الصوت والظاهرة ، الكتابة والاختلاف ، في علم الكتابة ، التشتت ، مواقف ، هوامش الفلسفة .

- تستهدف القراءة التفكيكية تفجير النص، انطلاقا من مبدأ اللاتماسك (المعنى غير قابلة للتجميع).

انتقلت التفكيكية الى الخطاب النقدي العربي المعاصر انتقالا محتشما ومتأخرا نسبيا، حيث تعد سنة 1985 بداية التفكيكية العربية، وتاريخ صدور أول تجربة نقدية عربية وهي تجربة الناقد السعودي عبد الله الغدامي من خلال كتابة الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية. ثم تتالت القراءات النقدية التفكيكية في الخطاب النقدي السعودي: عابد خزندار، سعد البازغي، ميجان الرويلي، عبد الله مرتاض، بسام قطوس، علي حرب، عبد العزيز حمودة.

النقد الموجه للتفكيكية

التفكيكية مثلها مثل أية موضة نقدية سابقة، لمعت مقولاتها وأفكارها في سماء النقد حتى انبهر بها المتلقي، لكنها سرعان ما وضعت على سندان النقد لتنهال عليها مطارق النقاد بالانتقادات اللاذعة، ومن ثمة أصبحت أقل شهرة، حيث بدأت في التراجع رويدا رويدا في انتظار بزوغ فجر نقدي جديد.

- تفتقد التفكيكية إلى معايير الضبط المنهجي بسبب التوسع والتعدد في الدلالة.
- لا ترغب التفكيكية للامتثال لمقولات المنهج، باعتبارها تعتمد على مبدأ المطاردة واللعب النقدي الحر.

فهم التفكيك من زوايا متعددة، أي بمعنى التدمير، التقويض، التفتيت، الشيء الذي يدل على أن كل ناقد قد يتعامل مع التفكيك حسب ما يراه هو، وليس كما يجب أن ينظر

- يقوم النقد التفكيكي على مواقف استعراضية أو استفزازية، أكثر مما يقوم على مرتكزات نظرية يسهل تطبيقها.